الإباضية والمعتزلة في عهد الدولة الرستمية

د/ابو عمران الشيخ*

انتشرت المذاهب الإسلامية والسياسية بعد معركة صفين كما هو معروف، وتكونت الفرق المشهورة ومنها الشيعة والخوارج. رأت الأولى أن تؤيد الإمام علي وتعصبت له ورأت الثانية أن تعارضه لأنه رضي بالتحكيم وانحصرت الخلافات أولا في قضية الإمامة ونظام الحكم ثم توسعت إلى مسائل فرعية وآراء كلامية وتعمق الصراع المذهبي الذي تحول أحيانا إلى حروب نشبت بين الأطراف المتعارضة وبين السلطة السياسية في عهدي الدولتين الأموية والعباسية واستمر الصراع مدة طويلة إلى أن تأسست سلطة مذهبية محلية هنا وهناك في عهد الرستميين ثم في عهد الفاطميين بالمغرب، وألف العلماء والمؤرخون مجموعة من المؤلفات لتأييد هذا المذهب أو ذاك وشرحوا فيها نظريات أصحابهم فأصبح من الممكن أن يتناولها الدارسون بالبحث والتحليل وإن كان من الصعب أن تتحلى هذه الدراسات بالموضوعية والنقد العلمي نظرا لما جاء في الكتب المذهبية من تعصب وتميز في غالب الأحيان. وقد حقق الباحثون في هذه السنوات الأخيرة عددا من المخطوطات القديمة ونشروها في الجزائر وفي العالم الإسلامي، الأمر الذي يسّر الاعتماد عليها والتعرف على الآراء والمواقف من مصادرها الأصلية ونستفيد منها هنا في عرض بعض المناقشات بين الإباضية والمعتزلة في عهد الدولة الرستمية أثناء

---

* رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

القرنين الثاني والثالث الهجريين (160-296هـ) ولا نستطيع طبعا عرض جميع المناظرات التي وردت في الكتب، فنكتفي بتقديم نماذج مختصرة منها من أجل التعريف بآراء ومواقف لها دلالتها الواضحة.

اجتمع علماء الإباضية والمعتزلة في عدة مناسبات في المشرق وفي المغرب ووقعت بينهم مناقشات كثيرة تناولت مسائل كلامية وعلمية حول نظام الحكم والتوحيد وحرية الإنسان والحركة والانتقال وغير ذلك. التقى العالم الإباضي أبو عبيدة وواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال في المسجد الحرام بمكة المكرمة وجرى بينهما حوار نقله لنا الدرجيني في طبقاته[1]. قال واصل: "أنت الذي بلغني أنك تقول إن الله يعذب على القدر فأجابه أبوعبيدة": ما هكذا قلت، ولكن قلت إن الله يعذب على المقدور، ثم سأله: "وأنت واصل بن عطاء؟- فقال نعم، قال: "أنت الذي بلغني عنك أنك تقول إن الله يعصى بالاستكراه". قال فنكس واصل رأسه فلم يجب بشيء"[2].

يفهم من هذا النص أن موضوع الحوار يتعلق بقضية القضاء والقدر أو قضية الحرية الإنسانية ويتلخص في أن الإنسان العاقل مخيّر في أعماله الإرادية أي الأفعال التي يستطيع التصرف فيها بمحض إرادته ولا يجبره الله على القيام بها، ومن هنا يعتبر مسؤولا عنها ؛ ولا يمكن أن يظلمه الله فيعاقبه على أمر هو مجبور عليه ؛ وهذه المسألة مشهورة في مذهب الاعتزال ولا خلاف فيها بين الإباضية والمعتزلة ولا ندري لماذا، تقول الرواية إن واصل لم "يجب بشيء"! ويبدو لنا أن الرواية متحيزة لنصرة أبي عبيدة. ونجد في المشرق روايات أخرى سجلت مناظرات أخرى بين علماء المذهبين يمكن الرجوع إليها.

---

1. أبو العباس الدرجيني عالم أباضي ولد بنفطة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تعلم بمدينة وارجلان وترجم لأبرز رجال المذهب في كتابه "طبقات المشائخ بالمغرب" طبعة البعث، قسنطينة 1974 تحقيق الأستاذ إبراهيم طلاي في جزئين.
2. *طبقات*، ج2، ص 246

أما في المغرب[1] فقد انعقدت مناقشات عديدة بين الإباضية والواصلية – وهم المعتزلة– وقد اتسمت تارة بالهدوء وتارة بالعنف. روى لنا المؤرخ ابن الصغير[2] في كتابه: "أخبار الأئمة الرستميين" المناظرة التي وقعت بين الإباضي عبد الله بن اللمطي وأحد علماء الواصلية وكان الموضوع يتعلق بالحركة والانتقال من مكان إلى مكان. التقى الإباضية والمعتزلة "بنهرمينا" لموعد جعلوه فيما بينهم للمناظرة، ولما اجتمع القوم وضمهم المكان نادى رجل من المعتزلة : "يا عبد الله !" فسأل المعتزلي عبد الله بن اللمطي الإباضي: "هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه إلى مكان لست فيه؟ فقال عبد الله: "لا" – وسأل الأول : "هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه إلى مكان لست فيه؟" فأجاب عبد الله : "إن شئت"– فقال المعتزلي: "خرجت منها يا ابن اللمطي"[3] – ونلاحظ هنا أن المسألة لم تكن معقدة وهي تشير إلى قضية "الطفرة" المعروفة عند المعتزلة ولا سيما عند النظّام.

وتحولت المناظرة إلى معارضة عنيفة في بعض الأحيان كما روى ذلك الدرجيني في طبقاته فقال: "تحرك الواصلية وهم قوم من البربر أكثرهم من زناته، وذلك لما أحسوا بوقوع التفرق وحاولوا أن ينهزوا الفرصة"[4]، والفرصة هذه هي خروج النكارية على الإمام الرستمي.

---

1. ذهب الدكتور يحي هويدي من جامعة القاهرة في كتابه "تاريخ الفلسفة الإسلامية في إفريقيا" إلى أن مذهب الاعتزال لم يصل إلى المغرب وهذا خطأ واضح، تسرب الاعتزال من المشرق إلى المغرب والأندلس عبر القيروان وبقية المدن الثقافية المغربية كما بينا ذلك في كتاب "قضية الحرية الإنسانية والفكر الإسلامي" –باريس دار "فران" 1978.
2. ابن الصغير عاش في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وألف تاريخه في أخبار الدول الرستمية وهو مقيم بمدينة تاهرت – حقق الكتاب الأستاذان محمد ناصر وإبراهيم فخار.
3. ابن الصغير، *أخبار الأئمة الرستمية* – الجزائر، 1986، ص 82.
4. الدرجيني، *طبقات المشائخ بالمغرب*، قسنطينة، الجزء الأول، ص57.

عبد الوهاب (171-208 هـ)- "واجتمعوا من كل جهة منحازين من تاهرت وأكثرهم من أهل البادية"[1]. فقاتلهم الإمام ولم يتغلب عليهم وقد بلغ عددهم ثلاثين ألفا حسب بعض المصادر[2]. فاستنجد عبد الوهاب بأصحابه من جبل نفوسة (ليبيا) وقدّم له هؤلاء المساعدة وأرسلوا إليه بأربعة رجال، منهم العالم ومنهم الفارس وخرج الإمام "والتقى العسكران..."[3] وجرت أولا مناظرة بين أحد الإباضيين وأحد المعتزلة ولم يفهم أحد من الحاضرين الموضوع ولاشك أنه كان جد دقيق ولم يظفر أحد الخصمين بصاحبه ولم يبين لنا الدرجيني موضوع النقاش إلا أنه قال إن الإباضي واسمه مهدي ألويغي النفوسي[4] قد انتصر على نظيره المعتزلي ولم يذكر أيضا الدرجيني اسم هذا الرجل على وجه التحديد. وبعد ذلك وقعت مبارزه بين فارس إباضي نفوسي يدعى أيوب وفارس واصلي شاب لم يذكر الدرجيني اسمه أيضا ويفسر لنا هذا الإهمال لأسماء المعتزلة تحيز الدرجيني إلى أصحاب مذهبه، وانتصر الفارس الإباضي على الفارس المعتزلي[5] ثم أمر الإمام رعيته بالقتال[6].

ونلاحظ هنا أن الإمام الرستمي قد واجه معارضة سياسية صريحة وقوية من بربر زناته القاطنين بالبادية ولم يكن فيهم العدد الكثير من العلماء وإنما اعتنقوا المذهب المعتزلي ليوحدوا صفوفهم. وقد عينوا زعمائهم من علماء الواصلية وتسلحوا ليتخلصوا من السلطة الرستمية التي سيطرت على المدينة وضواحيها فقط وهذا

1. الدرجيني، نفس المصدر ونفس الجزء والصفحة.
2. راجع البكري، ياقوت.
3. الدرجيني، *طبقات المشائخ* – ج 1، ص 61.
4. الدرجيني، نفس المصدر، ج1 – ص 58 وص 60.
5. الدرجيني، طبقات المشائخ، ج1، ص 62.
6. الدرجيني، نفس المصدر، ج 1، ص 60.

الصراع بين المدينة والبادية قد اتسعت رقعته بعدما دبّ الخلاف إلى الأسرة الرستمية وتصارع أعضائها على الحكم وهذا موضوع آخر يمكن بحثه في فرصة أخرى، ونختم هذا المقال المختصر بالتركيز على وجود الاعتزال بالمغرب وبتاهرت بالذات وقد تميز أنصار المذهب بروح الجدل وحرية الفكر ويبدو أن الدولة الرستمية قد اتسع صدرها أحيانا إلى هذا النوع من المناظرات والمناقشات التي عرضناها بإيجاز وكان من الممكن التوسع فيها لو سمح بذلك الوقت وفيما ذكرنا الكفاية. والله ولي التوفيق.

المصادر والمراجع :

1. ابن الصغير، "أخبار الأئمة الرستميين" نشر المطبوعات الجميلة، الجزائر 1986 تحقيق الأستاذين محمد ناصر وإبراهيم فخار.
2. أبو زكرياء، "كتاب سير الأئمة"، تحقيق إسماعيل العربي ـ المكتبة الوطنية 1399هـ/1979.
3. أبو العباس الدرجيني، "طبقات المشائخ بالمغرب"، دار البعث، قسنطينة 1974– تحقيق الأستاذ إبراهيم طلاي.
4. الشهر ستاني، "الملل والنحل"، تحقيق الكيلاني، القاهرة.